الباب الأول

الفصل الأول : حياته

الفصل الثانى : الزهد والورع

الفصل الثالث : السياحة الدينية

الفصل الرابع : كراماته

الفصل الخامس : سهل ومجالات علم التوحيد

الفصل الأول
حيـــاته

إن لله فى كل عصر عبادًا قد تحققوا بالعبودية ، واستجابوا لله ، سبحانه ، فى قوله تعالى :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[1] .

وها هو الشيخ الجليل : محمد بن سوار ، قائم فى جنح من الليل ، يتبتل إلى الله ، ويتضرع إليه ، ويناجيه سبحانه .

وها هو ذا قائم يصلى فى خشوع ، ويدعو فى خضوع العبد الملتجئ إلى مالك الملك ذى الجلال والإكرام .

إنه يشعر بسعادة لاحدَّ لها فى خلوته هذه ، مناجيًا ومتفكرًا ومتأملاً :

لقد رضي عن الله ، فرضى الله عنه ، فشعر بسحائب الرحمة تفيض عليه من الملأ الأعلى ، من خزائن رحمة الله التى لا تنفد ، ويستغرق الشيخ وتغمره البهجة ... ويرى هذا المنظر ، سهل بن على التسترى ، وهو غلام صغير فيروقه ويعجبه ، ويملأ قلبه سكينة وهدوءًا وطمأنينة ، فيلازم خاله .

يقول سهل ، فيما يرويه القشيرى : « كنت ابن ثلاث سنين ، وكنت أقوم الليل أنظر إلى صلاة خالى : محمد بن سوار ، وكان يقوم الليل » .

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

ويشفق الشيخ على الغلام أن يصيبه برد ، أو أن يكون عدم النوم سببًا فى ضعفه ، ويشغل ذلك قلبه : رحمة بالغلام وشفقة عليه ، فيناديه أحيانًا : يا سهل : « اذهب فنم فقد شغلت قلبى » ...

ويحاول الغلام الاستمرار إرضاءً لرغبته ، ويحاول الذهاب إلى النوم إرضاءً لخاله ... ، . ويتأرجح بين هذا وذاك ، وتتغلب الرغبة أحيانًا ، وأحيانًا تتغلب إطاعة خاله ، ولكن الأيام تمر ، والغلام يحضر خلوة خاله ، ويألف خاله وجوده بجواره ، ويألف الغلام ملازمة خاله فى تهجده وعبادته ، ويتولد بينهما ود من نوع آخر غير ود القرابة والدم ، يتولد بينهما ود روحى عميق — على الرغم من فارق السن — وما كانت الصلة الروحية فى يوم من الأيام تتوقف على التعادل أو التقارب فى السن .

وبدأ هذا الود الروحى يتبلور فى يوم من الأيام حينما قال الخال : يا سهل ألا تذكر الله الذى خلقك ؟ !

وأحس الغلام فجأة بالغبطة تملأ جوانحه ، وبالسعادة تشق طريقها إلى قلبه : ها هو ذا خاله ينظر إليه نظرة تقدير ، إنه أصبح فى نظر خاله أهلا لأن يُوجَّه ، وأن يوضع على الطريق الذى يسير فيه خاله : هل يتأتى فى يوم من الأيام أن يسير فى الحياة على غرار خاله ، وأن يناجى هنا الإله الذى يناجيه خاله ، وأن يتكشف له السر الغامض الذى يجذب خاله فى سجدة الليل ، وينتشله من لذيذ الرقاد ، ليقف عابدًا متبتلاً ؟!

وتملأ الآمال الغامضة ، والسعادة الطارقة قلب الغلام ، وتأخذه الحيرة واللهفة على ألا تمر الفرصة ، فيسأل فى غير تردد ولا فتور سؤال مستجيب راض مغتبط : كيف أذكره ؟

ويجيب الخال : قل بقلبك ، عند تقلبك فى ثيابك ، ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : « الله معى ، الله ناظر إلى ، الله شاهدى » .

ويقول سهل هذا الورد ثلاث ليال بالدقة التى أرادها خاله ، ويتحدث عن نفسه فيقول : « ثم أَعْلَمْتُهُ » . فقال لى :

قل فى كل ليلة سبع مرات .

فقلت ذلك ، ثم أعلمته ، فقال لى :

قل فى كل ليلة إحدى عشرة مرة .

فقلت ذلك ، فوقع فى قلبى حلاوة .

فلما كان بعد سنة ، قال لى خالى :

احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل القبر : فإنه ينفعك فى الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة فى سرى ... . ثم قال لى خالى يومًا :

يا سهل ، من كان الله معه ، وهو ناظر إليه ، وشاهده ، أيعصيه ؟

إياك والمعصية .

فكنت أخلو ..

لقد كان فى سن مبكرة ، يخلو متعبدًا ، متهجدًا ، ذاكرًا .

لقد ذاق حلاوة الذكر بهذا الورد الخالد الذى عرف فيما بعد بورد سهل ، وذاق حلاوة الأذكار المأثورة ، وذاق حلاوة الخلوة على وجه عموم .

ولكن الزمن يمر ، وها هو ذا الغلام قد بلغ السن الذى يذهب فيه أقرانه إلى الكتّاب .. ولابد – والتقاليد تقضى بذلك – من أن يذهب إلى الكتّاب ليحفظ القرآن وليفقه شيئًا من معانيه .

ولكن سهلاً ، لا يأخذ الأمر بالسهولة ، التى يأخذه بها الغلمان ، ولا بالغبطة التى تكون شعورهم فيما يستقبلونه من حياة جديدة : إنه يتردد ، ويتباطأ ، ويخشى .

يخشى ماذا ؟ وماذا فى الذهاب إلى الكتّاب من ضير ؟

إنه يصارح أهله ، ويعلن خشيته سافرة لا لبس فيها ، ويشترط شروطًا إذا تحتم أمر الذهاب إلى الكتّاب فيقول :

إنى لأخشى أن يتفرق على همى ، ولكن شارطوا المعلم أنى أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع .

لقد ألف الخلوة ، فيها يتجمع الذهن ، وفيها يتركز الفكر فى المذكور ، وفيها يجد للذكر لذة ، ويجد للصدر انشراحًا .. فإن كان لابد من الكتاب فليكن على نسق يجمع الخير من أطرافه ، ليكن للكتاب ساعة وللخلوة الباقى .

ودخل فى الخلوة عنصر جديد : هو الذكر بالقرآن ، ويجد سهل فى القرآن النور ، ويجد فى القرآن الهداية ، فيجد فى حفظه .

وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين .

ولم يترك فى هذه الأثناء ورده الخالد : الله معى ، الله ناظر إلى الله شاهدى كما لم يتركه طيل حياته .

لقد كان هذا الورد شعاره حتى ليقول ابن أبى ساعدة .

كان الجالس إلى سهل يكاد يسمع دقات قلبه كلمات ورده .

وعن هذا الورد ، يقول صاحب الكواكب الدرية :

وهو ورد عظيم الشأن ، جربه أهل العرفان ، لكان الترياق الفاجع دائمًا ويقول الشيخ الأكبر ابن عربى فى فتوحاته عن هذا الورد :

دخلت الخلوة بورد سهل ، ففتح لى به فى ليلة واحدة وفيه أسرار عجيبة ، وأذواق غريبة :

ومن أكثر من ذكره حببت له الطاعات ، وبغضت إليه المنكرات ومن ذكره كل ليلة سبع مرات ، وهو فى فراشه ، وجد له حلاوة فى سره .

ويذكر المناوى فى الكواكب الدرية عن هذا الورد :

« قال بعضهم ، ومن تعلق به لم يعجزه شيء من الموجودات » :

الفصل الثانى
الزهد والورع

إن رياضة سهل للآن : ذكر وقرآن ، فضلاً عن العبادة المفروضة والسنن المطلوبة – بيد أن عنصرًا جديدًا دخلها ، لم يكن جديدًا فى نوعه ، وإنما كان جديدًا فى استمراره ودوامه : ذلك هو الصيام ، لقد أخذ سهل فى الصيام ، لقد أخذ فى صيام الدهر ، وهو لم يبلغ بعد العاشرة .

أما قوته فى هذه الفترة ، وأما إفطاره ، فإنه خبز وشعير ، ولقد تكيف جسمه بالجوع حتى ليروى أنه كان يصح إذا جاع ، ويمرض إذا شبع ، وإن من كان قوته الذكر ، وغذاؤه النور ، فإن القليل من القوت المادى يكفى : لقد كان يعيش فى الأغلب الأعم من حياته على الماء وخبز الشعير .

واستمر سهل فى حياته رتيبة : ذكر ، وعبادة ، وصوم إلى أن بلغ الثالثة عشرة من عمره .

وفى هذه السن كان الأمر الهائل فى حياة سهل ، لقد حدثت له مسألة أذهلته : مسألة لم يدْرِ لها تعليلاً ، ولم يفهم لها تفسيرًا ، لقد حيرته ، فسأل أهله أن يبعثوه إلى البصرة ، عله يجد عند أحد من عارفيها تفسيرًا أو شرحًا وتوضيحًا : يقول سهل :

« فجئت البصرة ، وسألت علماءها ، فلم يشف أحد منهم عنى شيئا » وتتملك الحيرة سهلاً ، فيغادر البصرة إلى عبادان .

يقول سهل :

« فخرجت إلى عبادان ، إلى رجل يعرف بأبى حبيب حمزة بن عبد الله العبادانى : فسألته عنها ، فأجابنى .

وأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه ، وأتأدب بآدابه .

هذه المسألة يتحدث عنها الشيخ الأكبر : فيقول :

كان بدء سهل فى هذا الطريق « سجود القلب » .

وكم من ولى كبير الشأن ، طويل العمر ، مات وما حصل له سجود القلب ، ولا علم أن للقلب سجودًا مع تحققه بالولاية ورسوخ قدمه فيها ، فإن سجوده إذا حصل لا يرفع رأسه أبدًا من سجدته فهو ثابت على تلك القدم الواحدة التى تتفرع منها أقدام كثيرة .

وأكثر الأولياء يرون تقلب القلب من حال إلى حال ، ولهذا سمى : قلبًا وصاحب هذا المقام وإن تقلبت أحواله ، فمن عين واحدة هو عليها ثابت يعبر عنها بسجود القلب .

ولهذا لما رأى فى ابتداء دخوله الطريق أن قلبه سجد ، وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقى حائرًا ، فمازال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته ، فما وجد أحدًا يعرفها ، فإنهم أهل صدق ، ولا ينطقون إلا عند ذوق محقق .

قيل له : إن فى « عِبَادَان » شيخًا معتبرًا لو رحلت إليه ؟ ففعل ، فقال له أيها الشيخ أيسجد القلب ؟ فقال : إلى الأبد .

فوجد شفاء عنده ، فلزم خدمته ، فالله تعالى ، يؤتى ماشاء من علمه من يشاء من عباده » :

﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾[1] .

ويحدد الشيخ الأكبر مقام سهل رضى الله عنه بأنه السجود ، فيقول :

مقام سهل سجود القلب ليس له
فى غير سهل من الأكوان أحكام
لا يرفع القلب رأسا بعد سجدته
والوجه يرفع والتغيير إعلام
فإنه غير مشهود بقبلته
وقبله القلب أسماء وأعلام
تبدى حقيقته تأييد سجدته
وماله فى علوم الخلق أقدام

وهذه الحالة تسمى ، فيما يروى الشيخ الأكبر ، منزلة التمكين ، وتسمى : منزل العصمة .

---

(١) غافر : ١٥ .

الفصل الثالث
السياحة الدينية

وعاد سهل إلى تستر : عاد ليستمر فى الاتجاه الكامل إلى الله ، وعاد ليتابع طريقه فى العبادة والذكر والصيام .

لقد عاد مطمئنا : أن قلبه ساجد ، وكيانه كله خاضع ، لقد أصبح سجودًا وخشية وتواضعًا لله ، سبحانه .

ووجد للصيام نورًا فواصل وطوى اليومين والثلاثة وطوى أكثر من ذلك ، وفى كل يوم كان يزداد نورًا على نور ... .

واستمر على ذلك عشرين سنة ... . ثم ... .

يقول سهل : ثم خرجت أسيح فى الأرض سنين .

وكانت السياحة فى ذلك الزمن من الأمور الجوهرية بالنسبة لرجال العلم وبالنسبة لرجال الطريق ، وسواء كنا بصدد هؤلاء أو أولئك فإن السياحة بالنسبة لهم إنما هى سياحة دينية يريدون بها وجه الله . ويبتغون بها مرضاته :

أما ضرورة السياحة بالنسبة لرجال العلم ، فذلك أن الأقطار الإسلامية توزعت الاختصاصات المتخصصة ، فأكبر علماء الفقه مثلاً فى مصر ، وأكبر علماء التوحيد مثلا فى الحرم المكى ... . وهكذا .

وكان العالم يسافر ليتلقى العلم على المتخصص ، ثم يسافر ليتلقى على متخصص آخر فى علم آخر وهكذا ... بل كان العالم يسافر ليصحح حديثًا واحدًا ، أو بضعة أحاديث .

وما كان الهدف فى كل ذلك إلا ضبط العلم وتحرى الصحة فى الآثار وكانوا يضعون ذلك فى قائمة ما يتقرب به العالم إلى الله ، سبحانه وتعالى ، هذا نوع .

أما النوع الثانى من السياحة : فإنه كان سياحة تبتل وتحنث : إن الشخص فى أهله وذويه مشغول بهم ، مشغولون به ، إن أفكاره موزعة ، وإن آراءه مشتتة : متى يخلو إلى الله ؟ ومتى يكون فى جو من الانطلاق نحو الملأ الأعلى لا يحول دون ذلك مال ولا ولد ؟ متى يأتى له طلب الحق ، خالى الفكر ، صافى الذهن ؟

إن كل ذلك يتاح له بالسياحة ، والسياحة المتجردة .

ولقد كان الصوفية يسيحون عبادة ، ويسيحون استزادة من أنوار قوم فتربوا من ربهم وسبقوا فى السفر إليه ، ويسيحون استرشادًا فى الطريق وطلبًا للبركة ، ويسيحون للتأثير الروحى بالجلوس إلى أرباب المقامات العالية ، والمنازل السامية .

وبعض الناس يسيح طلبًا للملذات ، وبعضهم يسيح طلبًا لمشاهدة أماكن مادية لم يشاهدها من قبل ، وبعض الناس يأخذ أجازة فى الصيف – كل صيف – ليكشف عورته على شاطئ البحر ، ويرضى بأن تكشف ابنته وزوجته عورتهما على الشاطئ أيضًا ، تحت الأنظار – كل الأنظار – التى لا تتورع عن الإثم ولا عن النظر الفاسق .

أما أسلافنا ، رضى الله عنهم ، فقد كانت أسفارهم سياحة فى طلب الحق علمًا ، وسياحة فى طلب الحق عبادة ، إنها كانت سياحة إلى الله .

وقد كانت سياحة سهل رضى الله عنه سياحة علم ، وسياحة عبادة لقد كان عالمًا عابدًا ، فكانت هجرته إلى الله ورسوله .

وبعد هذه السياحة رجع إلى « تستر » .

الفصل الرابع
كراماته

رجع إليها على نور من ربه ، يدعو إلى الله على بصيرة .

ولم يبدأ سهل فى الدعوة إلى الله إلا بعد أن أذن الله له .

روى صاحب كتاب : « صفة الأولياء ومراتب الأصفياء » بإسناده ، قال :

« ذكر سهل التسترى وهو ابن ثلاث سنين .

وصام وهو ابن خمس سنين .

وترك الشهوات وهو ابن سبع سنين .

وساح فى طلب العلم وهو ابن تسع سنين .

وكانت تلقى مشكلات المسائل على العلماء ثم لا يوجد جوابها إلا عنده وهو ابن إحدى عشرة سنة .

وحينئذ ظهرت عليه الكرامات ...

وما من شك فى أننا لا نكاد نعلم شيئًا عن حياة سهل الشخصية ولكننا أخذنا نتلمس فى المصادر من الأخبار القليلة النادرة ما قد يلقى بعض الضوء على حياته ، نذكر من ذلك ما يلى :

يقول سهل : « لى أربعون سنة أكلم الله والناس يظنون أنى أكلمهم » .

ويقول جامع تفسير سهل :

« وصلى « سهل » صلاة العتمة فقرأ قوله تعالى : ﴿وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا﴾ فجعل يحرك فاه كأنه يمص شيئًا ، فلما فرغ من صلاته ، قيل له : أتشرب فى الصلاة ؟

فقال : والله لو لم أجد لذته عند قراءته كأنى عند شربه ما فعلت ذلك » .

وسئل عن قوله : ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾[1] فقال :

هذه أعظم آية فى كتاب الله تعالى ، وفيها اسم الله الأعظم ، وهو مكتوب بالنور الأخضر فى السماء سطرًا واحدًا من المشرق إلى المغرب كنت رأيته كذلك فى ليلة القدر مكتوبًا وأنا بعبادان :

« لا إله إلا هو الحى القيوم » انتهى

ومن الطرائف التى تروى عنه أنه :

« كان يداوى الناس ، ولا يداوى نفسه من الأمراض ، فعوتب فيه ، فقال : « ضربة الحبيب لا تؤلم » .

ويقول المؤرخون عن سهل :

كان يأمر أصحابه أن يأكلوا اللحم فى كل جمعة مرة كيلا يضعفوا عن العبادة ، وكان إذا أكل ضعف ، وإذا جاع قوى ، وكان يعرق فى البرد الشديد فى الشتاء وعليه قميص واحد ومما يروى عنه من الغرائب ، أو الطرائف :

---

(١) آل عمران : ٢ .

قال سهل : « وإنى لأعرف رجلاً من أولياء الله تعالى اجتاز برجل مصلوب وجهه إلى غير القبلة ، فقال :

أين ذلك اللسان الذى كنت تقول به صادقًا : « لا إله إلا الله » ؟ ثم قال : اللهم هب لى ذنبه .

قال سهل : فاستدار له نحو القبلة بقدرة الله انتهى .

وقال : اجتمعت برجل من أصحاب المسيح عليه الصلاة والسلام ، فرأيت عليه جبة صوف فيها طوارة ؛ وقال لهذه من أيام المسيح عليه السلام سبعمائة سنة ، فعجبت .

فقال : الأبدال لا تخلق ثيابهم ، وإنما يخلقها رائحة الذنوب ومطاعم السحت ، ولذلك قيل : إن للخضر عليه السلام إزارًا ورداء لا يبليان ولا يخلقان » .

وبلغ من أمره فى تقدير الناس أن قيل له :

لقد آتاك الله الحكمة ؟ فقال :

قد أوتيت إن شاء الله الحكمة وغيبا علمت من غيب سره ، فأغنانى عن علم ما سواه ، وأن إلى ربك المنتهى ، وبإتمام ما بدأنى به من فضله وإحسانه » .

وألف سهل كتبًا ، يقول صاحب الكواكب :

« وله تصانيف نفيسة منها : رقائق المحبين ومواعظ العارفين ، وجوابات أهل اليقين ، وغير ذلك .

وفى آخر أيام سهل ، يروى المؤرخون ما يلى :

« كان يسمع القرآن وغيره ، فلا يتحرك ، فلما كان أواخر عمره صار يتواجد ويقول :

ضعفنا والله عن التحمل ، وصار واردنا أقوى منا » .

وقال ابن سالم :

خدمت سهل بن عبد الله ستين سنة فما تغير فى شيء من الذكر أو غيره ، فلما كان آخر يوم من عمره قرأ رجل بين يديه هذه الآية : ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية﴾[1] فرأيته ارتعد واضطرب حتى كاد يسقط ، فلما رجع إلى حال صحوه سألته عن ذلك وقلت :

لم يكن عهدى بك هذا ؟ فقال :

نعم يا حبيبى قد ضعفت ، فقلت :

ما الذى يوجب قوة الحال ؟ فقال :

لا يرد عليه وارد إلا وهو يبتلعه بقوته ، فمن كان كذلك لا تغيره واردات ، وإن كانت قوية .

وكان يقول : « حالى فى الصلاة وقبل الدخول فيها سواء ، وذلك ، كان يراعى قلبه ، ويراقب الله تعالى بسره قبل دخوله فيقوم إلى صلاة بحضور قلبه ، وجمع همته » .

ولقد دخل سهل على رجل من عباد البصرة ، فرأى عنده بلبلة فى ص ، فقال : لمن هذه البلبلة ؟

---

(١) الحديد : ١٥ .

فقال : لهذا الصبى ، كان ابنًا له .

قال : فأخرج سهل من كمه دينارًا ، فقال :

بُنىّ أيهما أحب إليك : الدينار أم البلبلة ؟

فقال : الدينار ؛ فدفع إليه الدينار وأطلق البلبلة .

قال : « فقعد البلبل على حائط الدار حتى خرج سهل فجعل يرفرف فوق رأسه حتى دخل سهل داره ، وكان فى داره سدرة ، فسكنت البلبلة السدرة فلم تزل فيها حتى مات ، فلما رفعوا جنازته جعلت ترفرف فوق جنازته والناس يبكون حتى جاءوا بها إلى قبره ، فوقفت فى ناحية حتى دفن وتفرق الناس عن قبره ، فلم تزل تضطرب على قبره حتى ماتت فدفنت بجنبه » .

وفى ليلة الجمعة من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، أذن مؤذن الفجر بالصلاة ، فلم يتحرك سهل ؟

فصاح أهل بيته : مات سهل ، فما كان لمؤذن أن يرتفع صوته بنداء التكبير دون أن يقول سهل :

« لبيك اللهم لبيك » .

وروى أبو الحصين الحمصى فى كتابه – بهجة الأسرار – أنه لما مات سهل ، انكب الناس على جنازته حتى ماجت الطرقات بالناس ؛ وكان فى البلد يهودى نيف على السبعين ، فسمع الضجة فخرج لينظر ما كان ، فلما نظر إلى الجنازة ، صاح : أترون ما أرى ؟ فقال الناس :

ماذا ترى ؟ قال :

أرى أقوامًا ينزلون من السماء يتمسحون بالجنازة ؛

« ثم تشهد وأسلم » .

أما المبدأ الذى عاش ومات وهو شعاره الذى ينشره بين الناس ، والذى نختم به حياته ، فقد عبر عنه بقوله :

« الأصل الذى أنا أدعو إليه قولى : اتقوا يوما لا ليلة بعده ، وموتًا لا حياة بعده والسلام » .

تقدير العلماء لسهل :

والآن نذكر تقدير بعض العلماء له :

يقول صاحب الرسالة القشيرية عنه :

أحد أئمة القوم ، لم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات مع الله وفى الورع ، وكان صاحب كرامات .

ويقول صاحب كتاب الكواكب الدرية :

الشيخ الأمين ، الناصع المكين ، الناطق بالعقل الرصين ، من أعظم المشايخ المشهورين ، ولم يبرز للناس حتى وقع الإذن له من الله ، وأطلعه على مريديه وأسمائهم وأنسابهم ومن يفتح عليه منهم ومن يموت قبل الفتح .

حبر تجمل الإسلام بوجوده ، وزين طريق الصوفية بقلائد فوائده وعقوده ، وكان أوحد زمانه فى علوم الرياضيات .

ومن قبل هؤلاء كتب أبو نُعيم الأصفهانى المحدث المشهور يقول :

فمنهم الشيخ المكين ، الناصح الأمين ، الناطق الرصين أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التسترى .

تخرج عن خاله محمد بن سوار ، ولقى أبا الفضل ذا النون المصرى بالحرم .

عامة كلامه فى تصفية الأعمال ، وتنقية الأحوال عن المعايب والإعلال .

ويقول أبو عبد الرحمن السلمى :

ومنهم سهل بن عبد الله التُستَرى ، وهو سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع ، وكنيته أبو محمد .

أحد أئمة القوم وعلمائهم ، والمتكلمين فى علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال .

ويقول العالم الجليل الذى جمع تفسيره ما يلى :

وكان من طريقه وسيرته أنه كان كثير الشكر والذكر ، دائم الصمت والفكر ، قليل الخلاف ، سخى النفس ، قد ساد الناس بحسن الخلق والرحمة والشفقة عليهم ، والنصيحة لهم ، متمسكًا بالأصل ، عاملاً بالفرع ، قد حشى الله قلبه نورًا ، وأنطق الله لسانه بالحكمة ، وكان من خير الأبدال ، وإن قلنا من الأوتاد ، فقد كان القطب الذى يدور عليه الرحى ، ولولا أن الصحابة لا يقاس بهم أحد لصحبتهم ورؤيتهم لكان كأحدهم ، عاش حميدًا ، ومات غريبًا بالبصرة ، رحمه الله تعالى ..

ويقول المستشرق الذى كتب مادة « سهل التسترى » فى دائرة المعارف الإسلامية :

« متكلم وصوفى من أهل السنة ... كان زاهدًا لا يحيد قيد أنملة عن « قواعد الحق ، كما كان متكلمًا تزود من العلوم العقلية بزاد وافر » ...

ويقول صاحب كتاب « عقد الجمان » .

الصالح المشهور ، ولم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات والورع ، وكان صاحب كرامات ، ولقى ذا النون المصرى وله اجتهاد وافر ورياضة عظيمة .

ويقول صاحب « شذرات الذهب » :

القدوة العارف ... له مواعظ وأحوال وكرامات ، وكان من أكبر مشايخ القوم .

وهكذا بلغ سهل بعلمه وصلاحه هذه المنزلة الرفيعة عند العلماء والصالحين .

والآن نأخذ فى رسم الطريق كما رسمه سهل رضى الله عنه .

الفصل الخامس
سهل ومجالات علم التوحيد

يقول الله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ [2] .

ويقول الإمام ابن عبد البر متناسقًا مع القرآن الكريم :

إن الله ليس كمثله شيء ، فكيف يدرك بمثال ، أو بإمعان نظر ؟

ولقد تورع الكثير من سادتنا العلماء عن الحديث فى ذات الله سبحانه إلا بما ورد فى النصوص ، ويقولون فى كل ما يتصل بالذات من النصوص :

« آمنا به على مراد الله» .

أما التحديد والتفسير والتأويل بالرأى والعقل والفكر البشرى فإنهم بعيدون عن ذلك ، وشعارهم فى ذلك قوله تعالى :

﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾[3] .

ولقد اتجه علماء الإسلام الأول إلى احياء الإيمان فى النفوس ، وزيادته فى القلوب عن طريق السير على أسلوب القرآن فى العظة والعبرة .

---

(١) الشورى : ١١ .
(٢) الصافات : ١٨٠ .
(٣) الصافات : ١٨٠ .

ولكن فريقًا من الناس اتجهوا إلى البحث فى المتشابه ، والمتشابه هو كل ما يتصل بالذات الإلهية التى لا تدرك بمثال ولا بإمعان نظر .

ولقد حاول سهل رضى الله عنه أن يعود بالأمر إلى الوضع الصحيح فى هذا الموضوع ، وتحدث عن العلم فى جو التناسق مع القرآن .

يقول سهل بمناسبة قوله تعالى : ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾[1] .

يعنى أقررنا مخافة السبى والقتل ، لأن الإيمان : « اقرار باللسان صدقًا ، وإيقان فى القلب عقدًا ، وتحقيقها بالجوارح إخلاصًا ، وليس فى الإيمان أنساب ، وإنما الأنساب فى الإسلام ، والمسلم محبوب إلى الخلق ، والمؤمن غنى عن الخلق » .

ويتحدث سهل عن مثل المؤمن فى الدنيا فيقول :

« ما ينبغى للمؤمن من أن يكون فى الدنيا إلا كمثل رجل ركب خشبة فى البحر ، وهو يقول :

يارب ، يارب ، لعل أن ينجيه منها ، وما من عبد مؤمن زهد فى الدنيا إلا وكل الله به ملكًا حكيمًا يغرس فى قلبه أنواع الحكم كما يغرس أهل الدنيا فى بساتينهم من طرف الأشجار » .

ولقد سئل سهل عن القاطع للمؤمن عن الله فقال :

« العبد لله والله لعبده ، وليس شىء أقرب إليه من قلب المؤمن ، فإذا حضر الغير فيه فهو الحجاب ، ومن نظر إلى الله بقلبه بعد عن

---

(١) سورة الحجرات من الآية : ١٤ .

كل شيء دونه ، ومن طلب مرضاته أرضاه بحلمه ، ومن أسلم إلى الله تعالى قلبه سلمت جوارحه فاستقامت ، وإنما شهدت قلوبهم على قدر ما حفظوا من الجوارح ، ثم قال :

الزموا قلوبكم نحن مخلوقون وخالقنا معنا ، ولا تملوا من أعمالكم فإن الله شاهدكم حيثما كنتم ، وأنزلوا به حاجاتكم ، وموتوا على بابه ، قولوا :

نحن جهال ، وعالمنا معنا ، ونحن ضعفاء ومقوينا معنا ، ونحن عاجزون وقادرنا معنا ، فإن من لزمها كان الهواء والفضاء والأرض والسماء عنده سواء » .

ولقد تحدث سهل كثيرًا عن أخلاق المؤمنين ، ومن ذلك ما يلي :

قوله تعالى : ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله﴾[1] قال :

كل من صح إيمانه فإنه لا يأنس بمبتدع ويجابهه ، ولا يؤاكله ، ولا يشاربه ، ولا يصاحبه ، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء ، ومن داهن مبتدعًا سلبه الله حلاوة السنن ، ومن تحبب إلى مبتدع يطلب عزه في الدنيا وعرضًا منها أذله الله بذلك العز ، وأفقره الله بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب » .

---

(١) المجادلة : ٢٢ .

ويقول : « ليس من أخلاق المؤمن التذلل عند الفاقَة ، وقبيح بالفقراء يلبسون الخلقان ، وهموم الأرزاق فى قلوبهم ، وإنما أصل هذه الأمور ثلاث :

السكون إلى الله جل وعز ، والهرب من الخلق ، وقلة الأذى .

ولقد كان عامر بن قيس يقول إذا أصبح :

اللهم إن الناس قد انتشروا لحوائجهم ، وإن حاجتى أن تغفر لى » .

وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم﴾[1] قال : المؤمن على الحقيقة من لا يغفل عن نفسه وقلبه يفتش أحواله ، ويراقب أوقاته فيرى زيادته من نقصانه فيشكر عند رؤية الزيادة ، ويتفرغ ويدعو عند النقصان .

هؤلاء الذين بهم يدفع الله البلاء عن أهل الأرض ، ولا يكون المؤمن متهاونًا بأدنى التقصير فإن التهاون القليل يستوجب الكثير ، قال :

فإن العبد لا يجد طعم الإيمان حتى يدع ست خصال :

يدع الحرام ، والسحت ، والشبهة ، والجهل ، والمسكر ، والرياء ، ويتمسك بالعلم وتصحيح العمل ، والنصح بالقلب ، والصدق باللسان والصلاح مع الخلق فى معاشرتهم والإخلاص لربه فى معاملته » .

وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾[2] :

---

(١) الفتح : ٢٥ .

(٢) محمد : ١٤ .

المؤمن على بيان من ربه ، ومن كان على بينة من ربه لزم الاقتداء بالسنن » وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾[1] .

المؤمن وجه بلا قفا ، كرار غير فرار ، تراه يجاهد فى دين الله وطاعته من إقامة توحيده ، واقتدائه بنبيه ، وإدامة التضرع واللجوء إلى الله رجاء الاتصال به من موضع الاقتداء ، كما روى زيد بن أسلم عن النبى ﷺ ، قال :

ما من أمتى إلا يدخل الجنة إلا من أبى ، قلنا يا رسول الله ومن الذى يأبى ذلك ؟

قال : « من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى أن يدخل الجنة » .

وحقيقة التوحيد : هو النظر للحق لاغير ، والإقبال عليه ، والاعتماد ، ولا يتم ذلك إلا بالإعراض عما سواه ، وباظهار الافتقار واللجأ إليه .

ولقد سئل عن ذات الله سبحانه ، فقال :

ذات موصوفة بالعلم .

غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا .

وهى موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا حلول .

---

(١) الحج : ١١ .

وتراه العيون فى العقبى ظاهرًا فى ملكه وقدرته .

وقد حجب سبحانه وتعالى الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه ، والأبصار لا تدركه ، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية » .

وقال : « ليس له وراء ، وليس وراء الله وراء ، هو وراء كل شىء جل الله عز شأنه » .

ولقد سأله رجل عن علم الله تعالى فى عباده : هل هو شىء بداله من بعد ما خلقهم أو كان قبل أن يخلقوا ؟

فقال : « بل هو قرآن مجيد » أى كتاب محكم فى لوح محفوظ قبل أن يخلقوا ، وإن الله عز وجل فرغ من علم عباده وما يعملون قبل أن يخلقهم ، ولم يجبرهم على المعصية ، ولا أكرههم على الطاعة ، ولا أهملهم من تدبيره ، بل نبه على ما توعد به من كذّب بقدره فقال :

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1] .

على وجه التهديد ، إذ لا حول لهم ولا قوة إلا بما سبق علمه فيهم أنه سيكون منه بهم ولهم ، قال الله تعالى :

﴿وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردّ له﴾[2] .

« فالخير من الله تعالى أمر وإليه الولاية فيه ، والشر من الله نهى وإليه العصمة فيه » .

---

(١) الكهف : ٢٩ .

(٢) الرعد : ١١ .

ويحمل سهل على كل من يسير فى تيار المعتزلة فى موضوع أفعال العباد ، ومن ذلك ما يقوله عن المؤمنين :

فأمرهم الله عز وجل أن يؤمنوا بالغيب ، وأن يتبرءوا عن الحول والقوة فيما أمروا به ونهوا عنه ، اعتقادًا ، وقولاً ، وفعلاً ، ويقولوا :

لا حول لنا عن معصيتك إلا بعصمتك ، ولا قوة لنا على طاعتك إلا بمعونتك ، إشفاقًا منه عليهم ، ونظرًا لهم من أن يدَّعوا الحول والقوة والاستطاعة كما ادعاها من سبقت له الشقاوة ، فلما عاينوا العذاب تبرءوا من ذلك فلم ينفعهم تبرؤهم حين عاينوا العذاب ، وقد أخبر الله عمن هذا وصفهم فى قوله :

﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم – أى دعواهم – لما رأوا بأسنا﴾

﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين﴾[1] .

وكما ادعى الحول والقوة والاستطاعة فرعون وقال : متى شئت أنىّ أومن أومن ، فلما آمن لم يقبل منه ، قال الله تعالى :

﴿آلآن وقد عصيت﴾[2] .

أما عن مشكلة خلق القرآن فإن سهلا يخالف المعتزلة ويقول بمناسبة قوله تعالى :

﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربى لنفد البحر﴾[3] قال :

---

(١) الأعراف : ٥ .
(٢) يونس : ٩١ .
(٣) الكهف : ١٠٩ .

أى بعلم ربى وعجائبه ، ثم قال :

« إن من علمه كتابه ، ولو أن عبدًا أعطى لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية علم الله فيه ، لأنه كلامه القديم ، وكلامه صفته ولا نهاية لصفاته كما لا نهاية له ، وإنما يفهم على قدر ما يفتح الله على قلوب أوليائه من فهم كرمه » .

أما عن فكرته فى أفعال العباد فإنه يقول :

معنى : « رب العالمين » سيد الخلق المربى لهم ، والقائم بأمرهم ، المصلح المدبر لهم قبل كونهم وكون فعلهم ، المتصوف بهم السابق علمه فيهم كيف شاء لما شاء ، وأراد وحكم وقدّر من أمر ونهى ، لا رب لهم غيره » .

أما عن موقف المؤمن من القرآن الكريم ، فإن سهلاً يتحدث عن ذلك فى أكثر من مكان .

قيل له : ما معنى قوله القرآن حبل الله بين الله وبين عباده ؟

قال : أى لا طريق لهم إليه إلا به ، وبفهم ما خاطبهم فيه للمراد منهم به ، والعمل بالعلم لله مخلصين فيه ، والاقتداء بسنة محمد ﷺ المبعوث إليهم ، كما قال :

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[1] .

وقال سهل : إن الله تعالى أنزل القرآن على نبيه ﷺ ، وجعل قلبه معدنا لتوحيده والقرآن ، فقال :

---

(١) النساء : ٨٠ .

﴿نزل به الروح الأمين ، على قلبك﴾[1] .

وكلفه تبليغه عنه ليعلم المؤمنون به ما أنزل إليهم ، فمن آمن به ولم يعمل بعلم ما فيه لم يكمل أجره » .

وقال سهل :

العجب كل العجب لمن قرأ القرآن ولم يعمل به ، ولم يجتنب ما نهاه الله عنه ، أما استحيا من الله ومحاربته ومخالفته أمره ونهيه بعد علمه به ؟ فأى شيء أعظم من هذه المحاربة ؟ ألم يسمع وعده ووعيده ؟ ألم يسمع ما وعده الله به من النكال فيرحم نفسه ويتوب ؟ ألم يسمع قوله : ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين ؟﴾[2] فيجهد فى الإحسان ؟ ألم يسمع قوله : « ورحمتى سبقت عذابى فيرغب فى رحمتى ؟ » .

وبعد : فإن علامة المؤمن الكامل – كما يقول سهل – ألا يخاف أحدًا دون الله .

---

(١) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) الأعراف : ٥٦ .